

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧ - سُورَةُ الْحَدِيدِ

سميت به لأنه ناصر الله ورسوله في الجهاد ، فنزل منزلة الآيات الناصرة لله ورسوله ، على أنه سبب لإقامة العدل ، كالقرآن . وأيضاً أنه جامع للمنافع ، فأشبهه أيضاً ، فسميت سورة ذكر فيه ، بذلك - أفاده المهايى - .

وهي مدنية على الأصح ، بل قال النقاش : إنها مدنية بإجماع المفسرين ، ونظم آياتها ، وما تشير إليه ، يؤيده قطعاً .
وآياتها تسع وعشرون .

روى الإمام أحمد^(١) عن عرياض بن سارية ؛ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد . وقال : إن فيهن آية أفضل من ألف آية . وهكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى . قال ابن كثير : والآية المشار إليها في الحديث هي - والله أعلم - قوله تعالى (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ...) الآية ، لما سيأتى بيانه - والله أعلم - .

(١) أخرجه في مسنده بالصفحة رقم ١٢٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

«سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى أظهر كل موجود تنزيهه عن الشريك والولد، وكل ما لا يليق به، وآذن بانفراده فى ألوهيته، وتدبيره وعلمه وقدرته. فإن من شاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها، على حال من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واستحالة بعض الموجودات إلى بعض، لانتقاضى عجائبه، ولا تنتهى غاياته - فالضرورة يقضى بأن هذا الترتيب المحكم هو أثر خالق واحد، مدبر لنظامه، مرید لسيره فى سننه، كما بسطناه فى (دلائل التوحيد). «وَهُوَ الْعَزِيزُ» أى القوى الذى يقهر كل ما فى السموات والأرض «الْحَكِيمُ» أى الذى رتب نظام كل موجود على ترتيب حكيم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

«لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» أى سلطانهما، ونفوذ الأمر فيهما «يُحْيِي» أى يوجد ما يشاء من الحيوان والنبات كيفما شاء، ويميته بعد بلوغه أجله فيفنيه «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» أى تام القدرة، فلا يتعذر عليه شيء أرادته من إحياء وإماتة وغيرها.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

«هُوَ الْأَوَّلُ» أى السابق على كل موجود، من حيث إنه موجد ومحدثه «وَالْآخِرُ»

أى الباقى بمدفناء كل شىء « وَالظَّهِرُ » أى وجوده بالأدلة الدالة عليه. وقال ابن جرير^(١).
 أى الظاهر على كل شىء دونه ، وهو العالى فوق كل شىء ، فلا شىء أعلى منه « وَالْبَاطِنُ »
 أى باحتجابه بذاته وماهيته . أو العالم بباطن كل شىء . قال ابن جرير^(٢) : أى الباطن
 جميع الأشياء ، فلا شىء أقرب إلى شىء منه ، كما قال^(٣) (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
 الْوَرِيدِ) « وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » أى تام العلم ، فلا يخفى عليه شىء .
 وقد روى الإمام أحمد^(٤) عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم :
 اللهم ! رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء ، منزل التوراة
 والإنجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت
 آخذ بناصيته . أنت الأول فليس قبلك شىء . وأنت الآخر فليس بعدك شىء . وأنت الظاهر
 فليس فوقك شىء وأنت الباطن ليس دونك شىء . اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر
 - ورواه مسلم^(٥) وغيره . -

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ
 يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ
 وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)
 « هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » قال القاشانى : أى من الأيام
 الإلهية ، وقيل : المهدودة - والله أعلم - . « ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ » قال ابن جرير^(٥) :

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٥ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٥٠ / ق / ١٦] .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبي) .

(٤) أخرجه فى : ٤٨ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٦١ (طبعنا) .

(٥) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أى هو الذى أنشأ السموات السبع والأرضين ، فدبرهن وما فيهن ، ثم استوى على عرشه ، فارتفع عليه وعلا . « يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ » أى من خلقه كالأموات والبدور والحيوانات « وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا » أى كالزروع « وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ » أى من الأمطار والثلوج والبرد والأقذار والأحكام « وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا » أى من الملائكة والأعمال وغيرهما . « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ » قال ابن جرير^(١) : أى وهو شاهد لكم ، أينما كنتم ، يعلمكم ويعلم أعمالكم ومتقلبكم ومثواكم ، وهو على عرشه فوق سماواته السبع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فى (شرح حديث النزول) : لفظ المعية فى سورة الحديد والمجادلة، فى آيتيهما، ثبت تفسيره عن السلف بالعلم . قالوا : هو معهم بعلمه . وقد ذكر الإمام ابن عبد البر وغيره ؛ أن هذا إجماع من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولم يخالفهم أحد يعتد بقوله . وهو مأثور عن ابن عباس والضحاك ومقاتل بن حيان وسفيان الثورى وأحمد بن حنبل وغيرهم . قال ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى هذه الآية : هو على العرش وعلمه معهم ، وهكذا عن ذكر معه . وقد بسط الإمام أحمد الكلام على المعية فى (الرد على الجهمية) . ولفظ المعية فى كتاب الله جاء عاماً كما فى هاتين الآيتين ، وجاء خاصاً كما فى قوله تعالى^(٢) (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) وقوله^(٣) (إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى) وقوله^(٤) (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) فلو كان المراد بذاته مع كل شىء ، لكان التعميم يناقض التخصص ، فإنه قد علم أن قوله (لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) أراد به تخصيصه وأبا بكر، دون عدوهم من الكفار . وكذلك قوله (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) خصهم بذلك دون الظالمين والفجار . وأيضاً ، فلفظ المعية، ليست فى لغة العرب، ولا شىء من

(١) انظر الصفحة رقم ٢١٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [١٦ / النحل / ١٢٨] . (٣) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٤) [٩ / التوبة / ٤٠] .

القرآن ، أن يراد بها اختلاط إحدى الذاتين بالأخرى ، كما في قوله ^(١) (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ) وقوله ^(٢) (فَأَوْ لَسَمِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ) وقوله ^(٣) (اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) وقوله ^(٤) (وَجَاهِدُوا مَعَكُمْ) ومثل هذا كثير . فامتنع أن يكون قوله ^(٥) (وَهُوَ مَعَكُمْ) يدل على أن ذاته مختلطة بذوات الخلق . وأيضاً ، فإنه افتتح الآية بالعلم ، وختمها بالعلم ، فكان السياق يدل على أنه أراد أنه عالم به . وقد بسط الكلام عليه في موضع آخر ، وبيّن أن لفظ المعية في اللغة ، وإن اقتضى المجامعة والمصاحبة والمقاربة ، فهو إذا كان مع العباد ، لم يناف ذلك علوه على عرشه ، ويكون حكم معيته في كل موطن بحسبه . فمع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان ، ويخص بعضهم بالإعانة والنصر والتأييد . انتهى .

وقال الإمام موفق الدين بن قدامة المقدسي رضي الله عنه في كتاب (ذم التأويل) :
 فإن قيل : فقد تأولتم آيات وأخباراً ، فقلتم في قوله تعالى (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ) أي بالعلم ، ونحو هذا من الآيات والأخبار ، فيلزمكم بنا لزمننا ؟

قلنا : نحن لم نتأول شيئاً ، وحمل هذه اللفظات على هذه المعاني ليس بتأويل ، لأن التأويل صرف اللفظ عن ظاهره ، وهذه المعاني هي الظاهر من هذه الألفاظ ، بدليل أنه المتبادر إلى الأفهام منها . وظاهر اللفظ هو ما يسبق إلى الفهم منه ، حقيقة كان أو مجازاً . ولذلك كان ظاهر الأسماء العرفية ، المجاز دون الحقيقة ، كاسم الراوية والظئينة وغيرهما من الأسماء العرفية ، فإن ظاهر هذا ، المجاز دون الحقيقة . وصرفها إلى الحقيقة يكون تأويلاً يحتاج إلى دليل . وكذلك الألفاظ التي لها عرف شرعي ، وحقيقة لغوية ، كالوضوء والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج ، إنما ظاهرها العرف الشرعي دون الحقيقة اللغوية . وإذا تقرر هذا ، فالتبادر

- (١) [٤٨ / الفتح / ٢٩] . (٢) [٤ / النساء / ١٤٦] .
 (٣) [٩ / التوبة / ١١٩] . (٤) [٨ / الأثقال / ٧٥] .
 (٥) [٥٧ / الحديد / ٤] .

إلى الفهم من قولهم (إن الله معك) أى بالحفظ والسكواة . ولذلك قال الله تعالى فيما أخبر عن نبيه^(١) (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ، وقال موسى^(٢) (إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى) ، ولو أراد أنه بذاته مع كل أحد لم يكن لهم بذلك اختصاص ، لوجوده فى حق غيرهم ، كوجوده فيهم ، ولم يكن ذلك موجباً لنفى الحزن عن أبى بكر ، ولا علة له . فعلم أن ظاهر هذه الألفاظ هو ما حملت عليه ، فلم يكن تأويلاً . ثم لو كان تأويلاً فما نحن تأولناه ، وإنما السلف رحمة الله عليهم ، الذين ثبت صوابهم ، ووجب اتباعهم ، هم الذين تأولوه . فإن ابن عباس والضحاك ومالكا وسفيان وكثيراً من العلماء قالوا فى قوله (وَهُوَ مَعَكُمْ) أى علمه . ثم قد ثبت بكتاب الله ، والمتواتر عن رسول الله ﷺ وإجماع السلف؛ أن الله تعالى فى السماء على عرشه ، وجاءت هذه اللفظة مع قرائن محفوفة بها دالة على إرادة العلم منها ، وهو قوله^(٣) (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) ثم قال فى آخرها (إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عَلِيمٌ) . فبدأها بالعلم ، وختمها به ، ثم سياقها لتخويفهم بعلم الله تعالى بحالهم ، وأنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ويجازيهم عليه ، وهذه قرائن كلها دالة على إرادة العلم ، فقد اتفق فيها هذه القرائن ، ودلالة الأخبار على معناها ، ومقالة السلف وتأويلهم . فكيف يلحق بها ما يخالف الكتاب والأخبار ومقالات السلف؟ فهذا لا يخفى على عاقل إن شاء الله تعالى ، وإن خفى فقد كشفناه وبينناه بحمد الله تعالى . ومع هذا لو سكت إنسان عن تفسيرها وتأويلها لم يخرج ولم يلزمه شيء ، فإنه لا يلزم أحداً الكلام فى التأويل إن شاء الله تعالى . انتهى كلام ابن قدامة رحمه الله .

« وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم عليه .

(١) [٩ / التوبة / ٤٠] .

(٢) [٢٠ / طه / ٤٦] .

(٣) [٥٨ / المجادلة / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)

[٦] (يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » أى أمور جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه . « يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ » أى يدخل ما نقص من ساعات أحدها فيجمله زيادة في الآخر بحكمته وتقديره . « وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بضمائر صدور عباده ، وما عزمت عليه نفوسهم من خير أو شر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ

ءَامِنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ)

« ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ » أى آمنوا بالإيمان اليقيني ليظهر أثره عليكم ، فيسهل عليكم الإتفاق من مال الله الذى مولاكم إياه ، وجعلكم مستخلفين فيه ، بتمكينكم وإقداركم على التصرف فيه بحكم الشرع ، إذ الأموال كلها لله ، واختصاص نسبة التصرف إنما هو بحكمه فى شريعته - أفاده القاشاني - .

وقال الشهاب : الخلافة إما عمن له التصرف الحقيقي ، وهو الله تعالى ، وهو المناسب لقوله (لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ، أو عمن تصرف فيها قبلهم ممن كانت فى أيديهم فانتقلت لهم . وعلى كلِّ ، ففيه حث على الإتفاق ، وتهوين له . أما على الأول فظاهر . لأنه أذن له فى الإتفاق من ملك غيره ، ومثله يسهل إخراجه وتكثيره . وعلى الثانى أيضاً ، لأن من علم أنه لم يبق لمن قبله ، علم أنه لا يدوم له أيضاً ، فيسهل عليه الإخراج .

وما المال والأهلون إلا ودائعُ ولا بدَّ يوماً أن تُردَّ الودائعُ^(١)
 « قَالِدِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ
 وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

« وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » أى وما يصدكم عنه، وقد ظهرت دواعيه، واتضح
 سببه لذويه كما قال « وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ » أى يدعوكم من طريق النظر
 والتفكير إلى الإيمان بالذى رببكم بنعمه، وصرّفكم بالآئه، فوجب عليكم شكره .
 « وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ » أى بالإيمان، إذ ركّب فيكم العقول، ونصب الأدلة، ومكّنكم
 من النظر، بل أودع في فطركم ما يضطركم لذلك إذا نهتم، وقد حصل ذلك بتذكير الرسول،
 فاعليكم إلا أن تأخذوا في سبيله . « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » قال القاشانى : أى إن بقى نور
 الفطرة والإيمان الأزلى فيكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
 إِلَى النُّورِ، وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ)

« هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ، وبراہین قاطعات،
 « لِيُخْرِجَكُم » أى الله، أو عبده بآياته « مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » أى من ظلمات

(١) قائله لبید، من قصیدته التي مطلعها :

بَلِينَا وَمَا تَبَلَى النُّجُومُ الطَّوَالِعُ وَتَبَقَى الْجِبَالُ بَعْدَنَا وَالْمَصَانِعُ
 (الشعر والشعراء ص ٢٣٦) .

الجهل والكفر والأهواء المتضادة، إلى نور الهدى واليقين، الذى تشعر به النفوس، وتطمئن به القلوب . « وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ » أى فى إزاله الكتب ، وإرساله الرسل لهدايتكم ، إزاحة للعلل ، وإزالة للشبه .
ولما كان إزاله هذه السورة للأمر بالإتفاق فى سبيل الله ، والترغيب فيه ، والحث عليه ، أكثر من ذكره فى ضروب من البيان ، وفنون من الأحكام . ولذا قال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ، وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى يرث كل شئ فىهما ، ولا يبقى لأحد مال . وإذا كان كذلك ، فما أجدد أن ينفق المرء فى حياته ، ويتخذ ذخرأ يجده بعد مماته .

قال الشهاب : هذا من أبلغ ما يكون فى الحث على الإتفاق ، لأنه قرنه بالإيمان أو لا لما أمرهم به ، ثم وبخهم على ترك الإيمان ، مع سطوع براهينه ، وعلى ترك الإتفاق فى سبيل من أعطاه لهم ، مع أنهم على شرف الموت ، وعدم بقائهم إن لم ينفقوه . وسبيل الله كل خير يوصلهم إليه ، أعم من الجهاد وغيره . وقصر بعضهم إياه على الجهاد ، لأنه فرده الأكمل ، وجزؤه الأفضل ، من باب قصر العام على أهم أفراده وأشملها ، لاسيما وسبب النزول كان لذلك .

« لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتَلَ » أى من قبل فتح مكة ، أو صلح الحديبية ، وقاتل لتعلو كلمة الحق . ومن أنفق من بعد وقاتل فى حال قوة الإسلام ، وعزة

أهله . فحذف الثاني لوضوح الدلالة عليه . فإن الاستواء لا يتم إلا بذكر شيئين . على أنه أشير إليه بقوله مستأنفاً عنهم ، زيادة في التعمية بهم: « أَوْلَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتَلُوا » أى لعظم موقع نصرته الرسول ، صلوات الله عليه ، بالنفس ، وإتفاق المال في تلك الحال ، وفي المسلمين قلة ، وفي الكافرين شوكة وكثرة عدد . فكانت الحاجة إلى النصرة والمعاونة أشد ، بخلاف ما بعد الفتح ، فإن الإسلام صار في ذلك الوقت قوياً ، والكفر ضعيفاً . ويدل عليه قوله تعالى (١) « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَالْأَنْصَارِ » وقوله عليه الصلاة والسلام (٢) : لا تسبوا أصحابي ، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدكم ولا نصيفه . وهذه الآية دالة على فضل من سبق إلى الإسلام وأنفق وجاهد مع الرسول ﷺ - أفاده الرازى - .

وفي (الإكمال) : في الآية دليل على أن الصحابة مراتب ، وأن الفضل للسابق ، وعلى تنزيل الناس منازلهم ، وعلى أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين ، لأن الأجر على قدر النصب . انتهى .

« وَكُلًّا » أى وكل واحد من الفريقين « وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسَيْنَا » أى الثوبة الحسنى ، وهي الجنة ، لا الأولين فقط ، وإن كان بينهم تفاوت في تفاضل الجزاء .

قال ابن كثير : وإنما نبه بهذا لئلا يهدر جانب الآخر ، فيمدح الأول دون الآخر ، فيتوهم متوهم ذمه ، فلهذا عطف بمدح الآخر والثناء عليه ، مع تفضيل الأول عليه .

« وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » أى من النفقة في سبيله ، وجهاد أعدائه ، وغير ذلك فيجازيكم على جميع ذلك .

قال ابن كثير : ولخبرته تعالى ، فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك . وماذا إلا لعلمه بقصد الأول ، وإخلاصه التام ، وإتفائه في حال الجهد

(١) [٩ / التوبة / ١٠٠] .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ٢٢١ (طبعنا) .

عن أبي هريرة .

والقلة والضيق . وفي الحديث ^(١) : سبق درهم مائة ألف . ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر رضى الله عنه ، له الحظ الأوفر من هذه الآية ، فإنه سيّد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أتفق ماله كله ابتغاء وجه الله عز وجل ، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

« مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » قال أبو السعود : ندب بليغ من الله تعالى إلى الإنفاق فى سبيله ، بعد الأمر به ، والتوبيخ على تركه ، وبيان درجات المنفقين . أى : من ذا الذى يفتق ماله فى سبيله تعالى رجا أن يعوضه ، فإنه كمن يقرضه . وحسن الإنفاق بالإخلاص فيه ، وتحرى أكرم المال ، وأفضل الجهات له . فالقرض مجاز عن حسن إنفاقه مخلصاً فى أفضل جهات الإنفاق . وذلك إما بالتجوز فى الفعل ، فيكون استعارة تبعية تصرّحية ، أو فى مجموع الجملة ، فيكون استعارة تمثيلية . وقد زعم بعضهم أنها مقصورة على النفقة فى القتال ، وآخرون على نفقة العيال . قال ابن كثير : والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكلّ من أتفق فى سبيل الله بنية خالصة ، وعزيمة صادقة ، دخل فى عموم هذه الآية .

وهو جليّ ، وقد أسلفنا بيانه مراراً .

وقوله تعالى « فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ » أى يعطيه ثوابه أضعافاً مضاعفة ، « وَ لَهُ وَ أَجْرٌ كَرِيمٌ » أى جزاء شريف جميل . والجملة حالية ، أو معطوفة مشيرة إلى أن الأجر كما زاد كرمه ، زاد كرمه .

أخرجه النسائى فى : ٢٣ - كتاب الزكاة ، ٤٩ - باب جهد المقلّ ، عن أبى هريرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
بُشْرًا لَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلِدِينَ فِيهَا ،
ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

« يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ » أى :
لكونهم على الصراط المستقيم ، متوجهين إليه تعالى . و (النور) إما حقيقى حسي ، على ما
روى عن ابن مسعود : أن نورهم على قدر أعمالهم ، منهم من نوره مثل جبل ، ومنهم من
نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، فدون ذلك . قيل : وإنما خصصت تلك
الجهات ، لأن منها أخذت صحف الأعمال ، فجعل الله معها نوراً يعرف به أنهم من أصحاب اليمين
وإما مجازى معنوى مراد به ما يكون سبباً للنجاة ، واختاره ابن جرير^(١) ، وأيده بقوله :
لوعنى بذلك النور ، الضوء المعروف ، لم يخص عنه الخبر بالسعى بين الأيدي والأيمان ، دون
الشمال ، لأن ضياء المؤمنين الذين يؤتونه فى الآخرة يضىء لهم جميع ماحولهم ، وفى تخصيص
الخبر عن سعيه بين أيديهم وبأيمانهم ، دون الشمال ، ما يدل على أنه معنى به غير الضياء
وإن كانوا لا يخلون من الضياء . فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا : وكلاً وعد الله
الحسنى يوم ترون المؤمنين والمؤمنات يسعين ثواب إيمانهم وعملهم الصالح بين أيديهم وفى
أيمانهم كتب أعمالهم تطاير . ويعنى بقوله (يسعى) يعضى والباء فى قوله (وبأيمانهم) بمعنى
(فى) وكان بعض نحوى البصرة يقول : الباء فى قوله (وبأيمانهم) بمعنى (على إيمانهم) وقوله
« يوم ترى » من صلة (وعد) . انتهى .

« بُشْرًا لَكُمْ الْيَوْمَ جَنَّتْ » أى : يقول لهم من يتلقاهم من الملائكة : بشراكم أى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٢٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

المبشّر به جنات أو بشرًا كم دخول جنات . وقد قيل : إن البشارة تكون بالأعيان فلا حاجة لتقدير مضاف تصحيحاً للحمل .

« تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣] (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ

مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ

لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ)

« يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ » أي :

نُصِبَ مِنْهُ . يقال : اقتبس ، أي : أخذ قبساً ، وهو الشعلة . و (انظرونا) بمعنى انظروا

إلينا ، على الحذف والإيصال ، لأن الظنر بمعنى مجرد الرؤية ، يتعدى (إلى) فإن أريد التأمل

تعدى (في) . وقولهم ذلك ، إما حينما يساق المؤمنون إلى الجنة زمراً ، والمنافقون في العرصات

شاخصون إليهم ، أو حينما يشرفون من الغرف على المنافقين ، وهم في ضوضائهم وجلبتهم في

جهنم ، كقوله تعالى ^(١) (وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ

أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ...) الآية . وقيل : (انظرونا) بمعنى انتظرونا ، وهو الذي عول عليه

ابن جرير ^(٢) . والمراد حينئذ من الانتظار للاقتباس ، هو رجاء شفاعتهم لهم ، أو دخولهم

الجنة معهم طمعاً في غير مطمع ، يقولون لهم ذلك حينما يسرع بهم إلى الجنة .

« قِيلَ » أي : قالت الملائكة أو المؤمنون ، « ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا » قال

الزمخشري : طرد لهم ، وتهكم بهم . أي : ارجعوا إلى الموقف إلى حيث أعطينا هذا النور

(١) [٧ / الأعراف / ٥٠] .

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٢٤ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

فالتسوه هناك ، فمن ثم يقتبس . أو ارجعوا إلى الدنيا فالتسوا نوراً بتحصيل سببه ، وهو الإيمان . أو ارجعوا خائبين ، وتنحوا عنا ، فالتسوا نوراً آخر ، فلا سبيل لكم إلى هذا النور وقد علموا أن لانور وراءهم ، وإنما هو تحييب وإقنات لهم . وكلامه يدل على حمل النور على حقيقته . ولا مانع من أنه كنى به عن الإيمان والعمل الصالح . أى : ارجعوا إلى الدنيا فالتسوا إيماناً وعملاً طيباً يهديكم إلى النجاة ، كما أن النور يهدى في الظلمات ، على طريق الاستعارة . والأمر للتخسير والتنديم . وهذا ، مع ما ذكره الرخشرى رحمه الله ، وجه رابع .

ونقل الرازى عن أبي مسلم ؛ أن المراد من قول المؤمنين (ارجعوا) منع المنافقين عن الاستضاءة . كقول الرجل لمن يريد القرب منه : وراءك أوسع لك . قال الرازى : فعلى هذا القول ، المقصود من قوله (ارجعوا) أن يقطعوا بأنه لا سبيل لهم إلى وجدان هذا المطلوب ، لأنه أمرهم بالرجوع . انتهى . وهذا وجه خامس .

ثم أشار إلى امتياز الفريقين في المنازل وتباينهما فيها ، بقوله سبحانه : « فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ » أى : بين المؤمنين والمنافقين بحائط متين ، يحجزهم عن أنوار المؤمنين ، لتم ظلمتهم « لَهُ » أى : لذلك السور « بَابٌ » أى : لأهل الجنة يدخلون منه ، ويرى به المنافقون المؤمنين ليكلموهم « بَاطِنُهُ » وهو الجانب الذى يلى المؤمنين « فِيهِ الرَّحْمَةُ » يعنى : الجنة وما فيها من رضوان الله والنعيم المقيم . « وَظَهْرُهُ » وهو الذى يلى المنافقين ، « مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ » أى : من عنده ، ومن جهته الظلمة والنار .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (يُنَادُوهُمْ أَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ)

[١٥] (فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، مَا أَوْلَكُمُ النَّارُ ، هِيَ مَوْلَاكُمْ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

«يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ» يريدون موافقتهم في الظاهر «قَالُوا بَلَىٰ وَ لَكِنَّا كَفَرْنَا فَنَنصِرُكَ أَنْفُسُنَا» أى محنتموها بالنفاق وأهلكتموها «وَتَرَبَّصْتُمْ» أى بالمؤمنين الدوائر، ليظهر الكفر فتظهروا ما فى أنفسكم «وَأَرَبَّصْتُمْ» أى فى توحيد الله ، ونبوة نبيه ، أو فى البعث بعد الموت ، أوفى قوله^(١) (لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ) ووعده بنصر المؤمنين ، أوفى جميع ذلك . «وَعَرَّضْتُمُ الْأَمْثَالَ» أى طول الآمال ، والطمع فى امتداد الأعمار . أوقولهم : (سيغفر لنا) . «حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ» يعنى : الموت ، أومصداق وعده بنصره رسوله ، وإظهاره دينه ، أو عذاب النار «وَعَرَّضْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ» أى الشيطان ، فأطمعكم بالنجاة والفوز والغلبة . وقرئ (الغرور) بالضم . «فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ» هذا من تنمة قول المؤمنين للمنافقين ، بعد أن ميز بينهم . أى فالיום لا يقبل منكم ما يفتدى به ، بدلاً من عذابكم ، وعوضاً من عقابكم «وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» يعنى الجاهرين بالكفر من الحادّين لله ولرسوله «مَا أَوْلَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ» أى أولى بكم ، أو تتولاكم كما توليتم موجباتها فى الدنيا «وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» أى النار .

ثم نعى عليهم رخاوة عقدهم فيما ندبوا إليه من التصديق فى سبيل الله ، بأن ذلك من أرقلة العناية بالخضوع لذكره وتنزيله ، تعريضاً للمنافقين ، وسوقاً للمؤمنين إلى السكال ، فقال سبحانه :

(١) [٩ / التوبة / ٣٣] و [٤٨ / الفتح / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦] (الْمَ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ)

« الْمَ يَأْنِ » أى ألم يحن . من (أنى الأمر) يأنى ، إذا جاء إناءه ، أى وقته « لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ » أى أن تلين وترق وتخلص قلوبهم لذكر اسمه الكريم وما يوجبها من الوجع منه والخشية ، أو لذكر وعده ووعيده . « وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ » يعنى القرآن الذى لو أنزل على جبل لتصدع . قال أبو السعود : ومعنى الخشوع له ، الاتقياء التام لأوامره ونواهيه ، والمعكوف على العمل بما فيه من الأحكام ، التى من جملتها ماسبق وما لحق من الإتفاق فى سبيل الله تعالى . وقد قيل : إن عطفه على الذكر عطف أحد الوصفين على الآخر ، وأن ذكر الله ككلام الله ، بمعنى القرآن . وكذا ما نزل من الحق ، فالعطف لتغاير العنوانين ، فإنه ذكر وموعظة ، كما أنه حق نازل . « وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ » أى الأجل والإمهال والاستدراج « فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ » أى لزوال الخشية والروعة التى كانت تأتتهم من الكتابين « وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » أى خارجون عن دينهم ، نابذون لما فى كتابهم .

تنبيه :

قال ابن كثير : فى الآية نهى للمؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى ، فإنهم لما تناول عليهم الأمد ، وبدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمنًا قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فقسّت قلوبهم ، وصار من سجيّتهم تحريف الكلم عن مواضعه . ولهذا نهى المؤمنون أن يتشبهوا بهم فى شئ من

الأمر الأصلية والفرعية . ونظير الآية قوله تعالى^(١) (فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ ...) إلى آخرها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

«أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» أى فهو محيىكم بعد مماتكم ومحاسبكم ، فلا منتدح لكم عن الجزاء . أى فاحذروا مغية القسوة والفسق . «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ» أى الحجج وضروب الأمثال «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أى لتثوبوا إلى عقولكم ومراشدكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ)

[١٩] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ)

«إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ» أى المتصدقين والمتصدقات فى سبيل الله «وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ» أى لتصدقهم بجميع أخبار الله وأحكامه ، وشهادتهم بحقية جميع ذلك . وقد جوز فى الشهداء وجهان :

(١) [٤ / النساء / ١٥٥] و [٥ / المائدة / ١٣] .

أحدهما - أن يكون معطوفاً على ما قبله ، أخبر عن الذين آمنوا أنهم صديقون شهداء ، وهو الظاهر ، لأن الأصل الوصل لا التفكيك .

والثاني - أن يكون مبتدأ ، خبره (لَهُمْ أَجْرُهُمْ) . و (الشُّهَدَاءُ) حينئذ إما الأنبياء الذين يشهدون على قومهم بالتبليغ أو الذين يشهدون للأنبياء على قومهم ، أو الذين قتلوا في سبيل الله . واختار الوجه الثاني ابن جرير^(١) ، قال : لأن الإيمان غير موجب في المتعارف للمؤمن اسم (شهيد) لا بمعنى غيره ، إلا أن يراد به شهيد على ما آمن به وصدقه ، فيكون ذلك وجهاً ، وإن كان فيه بعض البعد ، لأن ذلك ليس بالمعروف من معانيه إذا أطلق بغير وصل^(٢) فتأويل قوله (وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ) إذن ، والشهداء الذين قتلوا في سبيل الله ، أو هلكوا في سبيله ، عند ربهم ، لهم ثواب الله في الآخرة ونورهم . انتهى .

ثم رأيت لابن القيم في (طريق المجرتين) بسطاً لهذين الوجهين في بحث الصديقية . نقله لنفاسته . قال رحمه الله في مراتب المكلفين في الآخرة وطبقاتهم :

الطبقة الرابعة - ورثة الرسل وخلفاؤهم في أممهم ، وهم القاعون بما بعثوا به علماً وعملاً ، ودعوة للخلاق إلى الله على طريقهم ومنهاجهم . وهذه أفضل مراتب الخلق ، بعد الرسالة والنبوة ، وهي مرتبة الصديقية . ولهذا قرنهم الله في كتابه بالأنبياء ، فقال تعالى^(٣) (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا) . فجعل درجة الصديقية معطوفة على درجة النبوة . وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون في العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأُمَّته . فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحمة دينه . وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على

انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) قوله : بغير وصل ، أى كقوله : (شهداء على الناس) .

(٣) [٤ / النساء / ٦٩] .

الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . وقال تعالى ^(١) (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) قيل : إن الوقف على قوله (هُمُ الصَّادِقُونَ) ثم يتدى (وَالشَّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ) فيكون الكلام جملتين ، أخبر في إحداها عن المؤمنين بالله ورسوله أنهم هم الصديقون ، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل ، والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه . وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين ، هنا ، وفي سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي ^(٢) في قوله : (اثبت أحدُ فإنا عليك نبيٌ وصديق وشهيد) ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق . ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعمتاً له رضى الله عنه .

وقيل : إن الكلام جملة واحدة ، أخبر عن المؤمنين أنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم . وعلى هذا ، فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة ، وهي قوله ^(٣) : (لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) وهم المؤمنون ، فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا ، وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفاً لجملة (المؤمنين الصديقين) .

وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله . وعلى هذا القول يرجح أن يكون الكلام جملتين ، ويكون قوله (وَالشَّهَدَاءُ) مبتدأ خبره ما بعده ، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً في سبيل الله . ويرجح أيضاً أنه لو كان (الشهداء) داخلاً في جملة الخبر ، لكان قوله (لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ) داخلاً أيضاً في جملة الخبر عنهم ، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء :

(١) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٢) أخرجه البخاري في : ٦٢ - كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ ، ٥ - باب قول

النبي ﷺ : لو كنت متخذاً خليلاً ، حديث ١٧٢٨ ، عن أنس .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٣] .

أحدها - أنهم هم الصديقون .

والثاني - أنهم هم الشهداء .

والثالث - أن لهم أجرهم ونورهم .

وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول ، ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف . وهذا كما تقول : زيد كريم وعالم له مال . والأحسن في هذا تناسب الأخبار ، بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعاً ، فتقول . زيد كريم عالم له مال ؛ أو كريم وعالم وله مال ، فتأمله ! ويرجح أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء ، وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم المذكورون في الآية ، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً . فهؤلاء ثلاثة أصناف . ثم ذكر الرسل في قوله تعالى (١) (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا يَا بَلِغْتَ إِنَّا بِأَلْبَابِنَا كَاتِبِينَ) فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء فهؤلاء هم السعداء ، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان : كفار و منافقون ، فقال (٢) (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا ..) الآية . وذكر المنافقين في قوله (٣) (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ) الآية فهؤلاء أصناف العالم كلهم . وترك سبحانه ذكر المخلط صاحب الشائبتين ، على طريق القرآن في ذكر السعداء والأشقياء ، دون المخلطين غالباً ، لسرِّ اقتضاه حكمته . فليحذر صاحب التخليط ، فإنه لا ضمان له على الله ، فلا هو من أهل وعده المطلق ، ولا يأس من روح الله ، فإنه ليس من الكفار الذين قطع لهم بالمذاب ، ولكنه بين الجنة والنار ، واقف بين الوعد والوعيد ، كل منهما يدعو إلى موجهه لأنه أتى بسببه . وهذا هو الذي لحظه القائلون بالنزلة بين المنزلتين ، ولكن غلطوا في تخليده في النار ، ولو نزله بين المنزلتين ، ووكوله إلى المشيئة لأصابوا . انتهى كلام ابن القيم ، وفيه موافقة لما اختاره ابن جرير في الآية .

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] . (٢) [٥٧ / الحديد / ١٩] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ١٣] .

ولما ذكر تعالى السعداء وما لهم ، عطف بذكر الأشقياء ، وبين حالهم بقوله : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ » .

ثم حقر تعالى أمر الدنيا ، وبين حاصل أمرها عند أهلها ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا ، وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَعَةٌ الْغُرُورِ)

« أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ » أى تفریح نفس « وَلَهُمْ » أى باطل « وَزِينَةٌ » أى منظر حسن « وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ » أى فى الحسب والنسب « وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ » أى مطر « أَعْجَبَ الْكُفَّارَ » أى الزراع « نَبَاتُهُ وَتَمَّ يَهِيَجُ » أى يجف بعد خضرته ونضرتة « فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا » أى من اليبس « ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا » أى هشياً متكسراً ، وكذلك الدنيا لا تبقى كما لا يبقى النبات « وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ » أى لمن ترك طاعة الله ، ومنع حق الله « وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ » أى فى الآخرة لمن أطاع الله ، وأدى حق الله من ماله . « وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَعَةٌ الْغُرُورِ » قال المهايى : يأخذ صاحبها ملاعب الدنيا بدل ملاعب الحور العين . ولهوها بملاذ الجنة . وزينتها بزينة الجنة . والتفاخر بدل التفاخر بجوار الله والقرب ، والتكاثر بالأموال والأولاد بدل نعم الله والولدان المخلدين فى الجنة .

ولما حقر الحياة الحسية النفسية الفانية ، وصورها فى صورة الخضراء السريعة الانقضاء ،

دعاهم إلى الحياة الباقية ، فقال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ، ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ » أى بادروا بالتوبة من ذنوبكم ، إلى نيل مغفرة وتجاوز عن خطيئاتكم من ربكم « وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ » أى الإيمان اليقيني . « ذَٰلِكَ » أى المغفرة والجنة « فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ » أى من كان أهلاً له « وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » قال ابن جرير (١) أى بما بسط خلقة من الرزق فى الدنيا ، ووهب لهم من النعم ، وعرفهم موضع الشكر ، ثم جزاهم فى الآخرة على الطاعة ، ما وصف أنه أعدّه لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)

[٢٣] (لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[٢٤] (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ، وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

« مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ » أى من قحط وجذب ووباء وغلاء « وَلَا فِي »

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

أَنْفُسِكُمْ» أى من خوف ومرض وموت أهل وولد ، وذهاب مال «إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ
 أَنْ نَبْرَأَهَا» أى إلا فى علم أزلّى من قبل خلق المصيبة أو الأنفس . وما علم الله كونه فلا بد
 من حصوله «إِنَّ ذَلِكَ» أى حفظه وتقديره على الأنفس المبروءة ما قدر ، «عَلَى اللَّهِ
 يَسِيرٌ» أى لسهمة علمه وإحاطته «لِكَيْلَا تَأْسَوْا» أى تحزنوا «عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ» أى
 من عافية ورزق ونحوها «وَلَا تَفْرَحُوا» أى تبطروا «بِمَاءِ آتَاكُمْ» أى من نعم الدنيا .
 والمعنى : أعلمناكم بأننا قد فرغنا من التقدير ، فلا يتصور فيه تقديم ولا تأخير ولا تبديل ولا
 تغيير ، فلا الحزن يدفعه ، ولا السرور يجلبه ويجمعه . قال القاشاني : أى لتعلموا علماً يقينياً
 أن ليس لكسبكم وحفظكم وحذركم وحراستكم فيما آتاكم ، مدخل وتأثير . ولا لمعجزكم
 وإهالكم وغفلتكم وقلة حيلتكم ، وعدم احترازكم واحتفاظكم فيما فاتكم مدخل . فلا
 تحزنوا على فوات خير ، وزول شر ، ولا تفرحوا بوصول خير . وزوال شر ، إذ كلها مقدرة
 «وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ» أى متبختر من شدة الفرح بما آتاه «فَخُورٍ» أى به على
 الناس ، لعدم يقينه ، وبعده عن الحق ، بحب الدنيا ، واحتجابه بالظلمات عن النور «الَّذِينَ
 يَبْخُلُونَ» أى بالإتفاق فى سبيل الله ، لشدة محبة المال «وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ» أى
 لاستيلاء الرذيلة عليهم . والموصول إما مبتدأ وخبره محذوف ، أى لهم وعيد شديد ، أو خبر
 ومبتدؤه محذوف ، أى هم الذين ، أو بدل من (كل) . «وَمَنْ يَتَوَلَّ» أى يمرض عن ذكر الله ،
 وما أمر به «فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ» أى عنه ، لاستغنائه بذاته «الْحَمِيدُ» أى لاستقلاله
 بكلامه . وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإتفاق لمصلحة المنفق ، لا لما يعود عليه تعالى ، فإنه
 الغنى المطلق .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ» أى بالحجج والبراهين القاطعة على صحة ما يدعون إليه «وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ» أى التام فى الحكم والأحكام «وَالْمِيزَانَ» أى العدل - قاله مجاهد وقتادة وغيرها - قال ابن كثير : وهو الحق الذى تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة ، المخالفة للآراء السقيمة «لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ» أى بالحق والعدل ، وهو اتباع الرسل فيما أمروا به ، وتصديقهم فيما أخبروا عنه . فإن الذى جاءوا به هو الحق الذى ليس وراءه حق ، كما قال (١) (وَوَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا) أى صدقاً فى الأخبار ، وعدلاً فى الأوامر والنواهي ، ولهذا يقول المؤمنون إذا تبوأوا عرف الجنات (٢) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» يعنى القتال به ، فإن آلات الحروب متخذة منه «وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ» أى فى مصالحهم ومعايشهم ، فإى من صناعة إلا وللحديد يد فيها .

فإن قيل : الجمل المتعاطفة لا بد فيها من المناسبة ، وأين هى فى إنزال الحديد مع ما قبله ؟ فالجواب : أن بينهما مناسبة تامة ، لأن المقصود ذكر ما يتم به انتظام أمور العالم فى الدنيا ، حتى ينالوا السعادة فى الآخرة . ومن هداه الله من الخواص العقلاء ينتظم حاله فى الدارين بالكتب والشرائع المطهرة . ومن أطاعهم وقلدهم من العامة بإجراء قوانين الشرع العادلة بينهم . ومن تمرد وطغا وقسا يضرب بالحديد ، الراد لكل مرید . وإلى الأولين أشار بقوله (٣)

(١) [٦ / الأنعام / ١١٥] .

(٢) [٧ / الأعراف / ٤٣] .

(٣) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

(وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) ججمعهم وأتباعهم في جملة واحدة . وإلى الثالث أشار بقوله ^(١) (وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ) فكأنه قال : أنزلنا ما يهتدى به الخواص ، وما يهتدى به أتباعهم ، وما يهتدى به من لم يتبعهم ، فهي حينئذ معطوفة ، لامعترضة لتقوية الكلام كما توهم ، إذ لا داعي له ، وليس في الكلام ما يقتضيه ، بل فيه ما ينافيه .

قال العتيبي في أول (تاريخه) : كان يختلج في صدرى أن في الجمع بين الكتاب والميزان والحديد تناقضاً ، وسألت عنه فلم أحصل على ما يريح العلة وينقع الغلة ، حتى أعلمت التفكير ، فوجدت (الكتاب) قانون الشريعة ، ودستور الأحكام الدينية ، يتضمن جوامع الأحكام والحدود ، وقد حظر فيه التعادى والتظالم ، ودفع التباعى والتخاصم ، وأمر بالتناصف والتعادل ، ولم يكن يتم إلا بهذه الآلة ، فلذا جمع (الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ) وإنما تحفظه العامة على اتباعها بالسيف ، وجذوة عقابه ، وعذب عذابه ، وهو (الحديد) الذى وصفه الله بالبأس الشديد . فجمع بالقول الوجيز ، معانى كثيرة الشعوب ، متدانية الجنوب ، محكمة المطالع ، مقومة المبادئ والمقاطع - نقله الشهاب - .

وأول القاشانى (البيئات) بالمعارف والحكم ، و (الكتاب) بالكتابة ، و (الميزان) بالعدل ، لأنه آتته ، و (الحديد) بالسيف ، لأنه مادته . قال : وهى الأمور التى بها يتم الكمال النوعي ، وينضبط النظام الكلى ، المؤدى إلى صلاح المعاش والمعاد ، إذ الأصل المعتبر والمبدأ الأول ، هو العلم والحكمة . والأصل المعول عليه فى العمل ، والاستقامة فى طريق الكمال ، هو العدل . ثم لا ينضبط النظام ، ولا يتمشى صلاح الكل إلا بالسيف والقلم اللذين يتم بهما أمر السياسة . فالأربعة هى أركان كمال النوع ، وصلاح الجمهور . ويجوز أن تكون (البيئات) إشارة إلى المعارف والحقائق النظرية و (الكتاب) إشارة إلى الشريعة والحكم العملية و (الميزان) إلى العمل بالعدل والسوية و (الحديد) إلى القهر ودفع شرور

(١) [٥٧ / الحديد / ٢٥] .

البرية . وقيل : (البيئات) العلوم الحقيقية ، والثلاثة الباقية هي النواميس الثلاثة المشهورة المذكورة في الكتب الحسكية . أى الشرع ، والدينار المعدل للأشياء في المعاوضات ، والملك . وأياً ما كان فهي الأمور المتضمنة للكمال الشخصى والنوعى في الدارين ، إذ لا يحصل كمال الشخص إلا بالعلم والعمل ، ولا كمال النوع إلا بالسيف والقلم . أما الأول فظاهر ، وأما الثانى فلأن الإنسان مدنى بالطبع ، محتاج إلى التعامل والتعاون ، لا تمكن معيشته إلا بالاجتماع . والنفوس إما خيرة أحرار بالطبع ، منقادة للشرع ، وإما شريرة عبيد بالطبع آبية للشرع . فالأولى يكفيها في السلوك طريق الكمال والعمل بالعدالة واللفظ وسياسة الشرع . والثانية لا بد لها من القهر وسياسة الملك . انتهى .

تنبيه :

لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة في معنى نزول القرآن ولفظ النزول ، حيث ذكر في كتاب الله تعالى ، بين فيها أن كثيراً من الناس فسروا النزول في مواضع من القرآن بغير ما هو معناه المعروف ، لاشتباه المعنى في تلك المواضع . وصار ذلك حجة لمن فسر نزول القرآن بتفسير أهل البدع . وحقق رحمه الله أن ليس في القرآن ولا في السنة لفظ (نزول) إلا فيه معنى النزول المعروف . قال : وهو اللائق بالقرآن ، فإنه نزل بلغة العرب ، ولا تعرف العرب منزولاً إلا بهذا المعنى . ولو أريد غير هذا المعنى لكان خطاباً بغير لغتها . ثم هو استعمال اللفظ المعروف له معنى ، في معنى آخر بلا بيان ، وهذا لا يجوز بما ذكرنا . قال : وقد ذكر سبحانه إنزال الحديد ، والحديد يخلق في المعادن . وما يذكر عن ابن عباس رضى الله عنهما ؛ أن آدم عليه السلام نزل من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد : السندان والكلبتان والميعة والمطرقة والإبرة - فهو كذب لا يثبت مثله . وكذلك الحديث الذى رواه الثعلبى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي ﷺ ؛ أن الله أنزل أربع بركات من السماء إلى الأرض ، فأُنزل الحديد والماء والنار والملح - حديث موضوع مكذوب والناس يشهدون أن هذه الأمة تصنع من حديد المعادن ما يريدون .

فإن قيل : إن آدم عليه السلام نزل معه جميع الآلات ، فهذه مكابرة للعيان .
وإن قيل : بل نزل معه آلة واحدة ، وتلك لا تعرف ، فأى فائدة في هذا لسائر الناس ؟
ثم ما يصنع بهذه الآلات إذا لم يكن ثم حديد موجود يطرق بهذه الآلات ؟ وإذا خلق الله
الحديد صنعت منه هذه الآلات .

ثم أخبر أنه أنزل الحديد ، فكان المقصود الأكبر بذكر الحديد هو اتخاذ آلات الجهاد
منه ، الذي به يُنصر الله ورسوله ﷺ . وهذا لم ينزل من السماء .

فإن قيل : نزلت الآلة التي يطبخ بها . قيل : فالله أخبر أنه أنزل الحديد لهذه المعاني المتقدمة ،
والآلة وحدها لا تكفي ، بل لابد من مادة يصنع بها آلات الجهاد .

ثم قال : وجعل بعضهم نزول الحديد بمعنى الخلق ، لأنه أخرجه من المعادن ، وعلمهم
صنعتهم ، فإن الحديد إنما يخلق في المعادن ، والمعادن إنما تكون في الجبال . فالحديد ينزله الله
من معادنه التي في الجبال ، لينتفع به بنو آدم . انتهى كلامه رحمه الله .

وقوله تعالى « وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ وَبِالْغَيْبِ » أى باستعمال الحديد في
مجاهدة أعدائه . عطف على محذوف دل عليه ما قبله . أى لينتفعوا به ويستعملوه في الجهاد ،
وليعلم الله . . . الخ . وحذف المعطوف عليه إيماء إلى أنه مقدمة لما ذكر ، وهذا المقصود منه .
أو اللام متعلقة بمحذوف . أى أنزله ليعلم . . . الخ والجملة معطوفة على ما قبلها . فحذف المعطوف ،
وأقيم متعلقه مقامه . وقيل عطف على (لَيَقُومَنَّ النَّاسُ بِالْقِسْطِ) . قال الشهاب : وهو قريب
بحسب اللفظ ، بعيد بحسب المعنى .

« إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ » أى على إهلاك من أراد إهلاكه « عَزِيزٌ » أى غالب قاهر
لمن شاء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَ وَالْكِتَابَ ،
فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

[٢٧] (ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَ نِيَّةٍ ابْتَدَعُوهَا
مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ،
فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوءَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ » أي
من الذرية « مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ » أي خارجون عن طاعته ، بترك نصوص كتبه
وتحريفها ، وإيثار آراء الأخبار والرهبان عليها ، واجترام ما نهوا عنه « ثُمَّ قَفَّيْنَا » أي أتبعنا
« عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً » أي حناناً ورقّة على الخلق ، لكثرة ما وصى به عيسى عليه
السلام ، من الشفقة وهضم النفس والمحبة . وكان في عهده أمتان عظيمتا القسوة والشدة :
اليهود والرومان . وهؤلاء أشد قسوة ، وأعظم بطشاً ، لاسيما في العقوبات . فقد كان لهم أفانين
في تعذيب النوع البشريّ بها . ومنها تسليط الوحوش المفترسة عليه ، وتريتها لذلك ،
مما جاءت البعثة المسيحية على أثرها ، وجاهدت في مطاردتها ، وصبرت على منازلها ، حتى
ظهرت عليها بتأييده تعالى ونصره - كما بيّنه آخر سورة الصف - . « وَرَهَابَ نِيَّةٍ ابْتَدَعُوهَا
مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا » أي ما فرضناها عليهم ، وإنما هم التزموها من عند أنفسهم . « إِلَّا
ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ » استثناء منقطع . أي ولكمهم ابتدعوها طلب مرضاة الله عنهم .
« فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا » أي ما قاموا بما التزموه منها حق القيام من الترهّد ، والتخلّي

للعبادة وعلم الكتاب ، بل آخذوها آلة للترؤس والسؤدد ، وإخضاع الشعب لأهوائهم .
 « فَآتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ » يعنى الذين آمنوا الإيمان الخالص عن شوائب الشرك
 والابتداع . ومنه الإيمان بمحمد صلوات الله عليه ، البشر به عندهم . « وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ
 فَسِقُونَ » أى خارجون عن مواجب الإيمان ومقاصده .

تنبهات

الأول - (الرهبانية) هى المبالغة فى العبادة والرياضة ، والانتطاع عن الناس ، وإيثار
 العزلة والتبتل . وأصلها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان ، وهو الخائف . (فعلان) من رهب ،
 كـ (خشيان) من خشى .

الثانى - قال ابن كثير فى قوله تعالى : (فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا) : ذم لهم من وجهين :
 أحدها - فى الابتداع فى دين الله مالم يأمر به الله .

والثانى - فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قرينة يقربهم إلى الله عز وجل .

الثالث - رأيت فى كثير من مؤلفات علماء المسيحيين المتأخرين ذم بدعة (الرهبة)
 وما كان لتأثيرها فى النفوس والأخلاق من المفسد والأضرار . فقد قال صاحب (ريحانة النفوس)
 منهم ، فى الباب السابع عشر ، فى الرهبة :

إن الرهبة قد نشأت من التوهم بأن الانفراد عن معاشره الناس ، واستعمال التقشفات
 والتأملات الدينية ، هى ذات شأن عظيم . ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم فى الكتب المقدسة
 لأن مثال المسيح ، ومثال رسله يضادانه باستقامة ، فإنهم لم يعتزلوا عن الاختلاط بالناس ،
 لىكى يعيشوا بالانفراد ، بل إنما كانوا دائماً مختلطين بالعالم ، يعلمون وينصحون . ونحن نقول
 بكل جراءة : إنه لا يوجد فى جميع الكتاب المقدس مثال للرهبنة ، ولا يوجد أمر من أوامره
 يلزم بها . بل بالعكس ، فإن روح الكتاب وغواه يضاد كل دعوى مبنية على العيشة المنفردة
 المقرونة بالتقشفات . ولكن مع أن الكتاب المقدس لا يمدح العيشة الانفرادية ، فقد

ظهر الميل الشديد إليها في الكنيسة ، في أواخر الجيل الثاني وأوائل الجيل الثالث . وأيد بعض الباحثين المقاومين لها وقتئذ، أنها إعادة سرت للمسيحيين من الهنود الوثنيين السمانيين . فإن لهم أنواعا كثيرة من عبادات تأمر كهنتها بالبتولية والامتناع عن أكل اللحم وأمورا أخرى مقرونة بمخافات .

ثم قال: ومع أن الرهبنة حصل عليها مقاومة من العقلاء، امتدت وانتشرت في المسكونة . وكان ابتداءؤها في مصر في الجيل الرابع ، على أثر اشتهار أحد الرهبان وممارسته التقيفات ، بسبب الاضطهاد الذي أصابه ، وآثر لأجله الطواف في البرارى، فرارا من أيادي مضطهديه . ثم عكف على الوحدة ، وعاش بها، وذلك في الجيل الثالث . ثم امتدت من مصر إلى فلسطين وسورية إلى أكثر الجهات . توها بأن رسم المسيحية الكاملة لا يوجد إلا في العيشة الضيقة القسفة ، فدعا ذلك كثيرين إلى ترك العيشة المألوفة بالاعتزال في الأديرة . مع أن ذلك الوهم باطل ، ومضاد للكتب المقدسة . ولما كثر عدد الرهبان كثرة هائلة ، ونجم عن حالهم أضرار عظيمة للمجتمع ، أصدر كثير من الملوك أوامر بمنع هذه العادة ، إلا أنها لم تنجح كثيرا .

وأما بدعة العزوبة والتبتل ، فنشأت من حَضّ بولس عليها ، وترغيبهم فيها ، كما أفصح عنه كلامه في آخر الفصل السابع من رسالته الأولى .

وقد قال صاحب (ريحانة النفوس) أيضا : إن هذه العادة لا يوجد لها برهان في الكتاب المقدس . وإنما دخلت بالتدرج ، لما خامرهم من توهم أفضلية البتولية ، وظنهم أنها أزكى من الزواج ، ومدح من جاء على أثرهم لها مدحا بالغاً النهاية في الإطراء، فحسبوا من الواجبات الأدبية المأمور بها ، ووضع نظام وقوانين لوجوبها في الجيل الثالث ، حتى قاومتها كنائس أخرى ، ورفضت بدعة البتولية وقوانينها ، لمغايرتها للطبيعة ، ومضادتها لنص الكتب الإلهية ، واستقرائها أديرة الراهبات ، بأنها في بعض الأماكن كانت بيوتاً للفواحش والفساد .

وفي كتاب (البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل البابوية) إن ذم الزيجة خطأ لأنها عمل الأفضل ، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقد بغار الشهوة ، وإن الأكثرين من رسل المسيح كانوا ذوى نساء ، تجول معهم . ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغضب الإنسان على استيفاء حقها ، ومن العدل أن تستوفيه ، وليس بمحرم عليها استيفاءه حسب الشريعة ، ولا استطاعة لجميع البشر على حفظ البتولية . ولذلك نرى كثيرين من الأساقفة والقسوس والشمامسة ، لابل من الباباوات المدعين بالمصمة ، قد تكرر سوا في هوة الزنا ، لعدم تحضنهم بالزواج الشرعى . هذا وإن ذات النذر بالامتناع عن الزواج هو غير عادل ، لتضمنه سلب حقوق الطبيعة ، وكونه يضع الإنسان تحت خطر السقوط في الزنا ، ويفتح باباً واسعاً لدخول الشيطان . وكان الراهب ينذر على نفسه مقاومة أمر الله ، ويعدم وجود ألوف ألوف ، ربما كانت تتولد من ذريته ، فكأنه قد قتلها . وهذا النذر لم تأمر به الشريعة الإنجيلية قط . فالطريقة الرهبانية هي اختراع شيطاني قبيح ، لم يكن له رسم في الكتب المقدسة ، ولا في أجيال الكنيسة الأولى ، وهو مضر على أنفس الرهبان ، وعلى الشعب ، فمن يقاومه يقاوم الشيطان . وهؤلاء الرهبان لا تفعم منهم للرعية ، إنما هم كالأمراء الذين يتخذون لأنفسهم قصوراً خارج العمران ، فيتنعمون وخدمهم في أديرتهم ، ويسلبون أموال الشعب بالحيل والمخادعات وهم كسالى بظالون ، يعيشون من أتعاب غيرهم ، خلافاً لسلوك رسل المسيح ، والمبشرين القدماء ، الذين لم نر واحداً منهم انفرّد عن العالم في مكان نزهته ، واحتال بأن يعيش من أتعاب الشعب . إن بولس كان يخدم الكنائس ، ويعيش من شغل يديه ، وهو يوصى بأن الذى لا يعمل ، فلا يطعم . ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار التي وقعت على العالم بسبب الرهبنات . انتهى ، وهو حجة عليهم ، منهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ ءَ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ ءَ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » قال ابن كثير: حمل ابن عباس هذه الآية على مؤمنى أهل الكتاب، وأنهم يؤتون أجرهم مرتين، كفى الآية التي في (القصص) وكما في حديث (١) الشعبي عن أبي بردة، عن أبيه عن موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي، فله أجران. وعبد مملوك أدى حق الله وحق مولاه، فله أجران. ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ثم اعتقها وتزوجها فله أجران - أخرجه في الصحيحين - ووافق ابن عباس على هذا التفسير الضحاك وعتبة بن أبي حكيم وغيرها. وهو اختيار ابن جرير (٢).

وقال سعيد بن جبير: لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله تعالى هذه الآية في حق هذه الأمة. والظاهر أن لفظها أعم، وأن المقصود بها حث كل من آمن بالنبي ﷺ على الثبات في الإيمان والرسوخ فيه، والانصياع لأوامره. ومنه ما حرض عليه في الآيات قبلها من الإتيان في سبيله، وسخاوة النفس فيه. وأن لهم في مقابلة ذلك أجراً وافراً، كما قال في أول السورة: (فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) فآخِر السورة، فيه رجوع لأوائلها بتذكير ما أمرت به، وما سبق نزولها لأجله.

(١) أخرجه البخاري في: ٣ - كتاب العلم، ٣١ - باب تعليم الرجل أمته وأهله،

حديث رقم ٨٢.

وأخرجه مسلم في: ١ - كتاب الإيمان، حديث ٢٤١ (طبعنا).

(٢) انظر الصفحة رقم ٢٤٣ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية).

وأصل (الكفل) الحظ . وأصله ما يكتفل به الراكب فيحبسه ويحفظه عن السقوط .
والثنية في مثله إما على حقيقتها ، أو هي كناية عن المضاعفة . و (النور) هو ما يبصر
من عمى الجهالة والضلالة ، ويكشف الحق لقاصده ، كما قال سبحانه (١) (يَأَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (لَيْلًا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ
وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« لَيْلًا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ
بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » متعلق بمضمون الجملة الطلبية
المتضمنة لعنى الشرط . والتقدير : إن تتقوا الله وتؤمنوا برسوله يؤتكم ما ذكر ، ليعلم
أهل الكتاب الذين لم يسلموا عدم قدرتهم على شيء من فضل الله ، وثبوت أن الفضل
بيد الله . والمراد بالفضل ما آتاه المسلمين وخصهم به . لأنهم كانوا يرون أن الله فضلهم
على جميع الخلق ، فأعلمهم الله جل ثناؤه أنه قد آتى أمة محمد ﷺ من الفضل والكرامة
ما لم يؤتهم ، ليعلموا أنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله ، فضلاً عن أن يتصرفوا
في أعظمه ، وهو النبوة ، فيخصوا بها من أرادوا ، وأن الفضل بيد الله دونهم ، ودون
غيرهم من الخلق ، يؤتية من يشاء من عباده .

و (لا) في (لئلا) صلة . قال السمين : وهو حرف شاعت زيادته .

(١) [٨ / الأتقال / ٢٩] .

وقال ابن جرير^(١) : وذكر أن في قراءة عبد الله (سكى يعلم) . قال : لأن العرب تجعل (لا) صلة في كل كلام دخل في أوله أو آخره جحد غير مصرح كقوله في الجحد السابق الذي لم يصرح به^(٢) : (مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْنَاكَ) وقوله^(٣) : (وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُآ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ) . وقوله^(٤) : (وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ...) الآية . ومعنى ذلك : أهلكتناها أنهم يرجعون . انتهى .

ونقل الثعالبي في (فقه اللغة) زيادتها في عدة شواهد . في فصل الزوائد والصلوات التي هي من سنن العرب . فانظره ، تردد علماء .

- (١) انظر الصفحة رقم ٢٤٦ من الجزء السابع والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .
 (٢) [٧ / الأعراف / ١٢] .
 (٣) [٦ / الأنعام / ١٠٩] .
 (٤) [٢١ / الأنبياء / ٩٥] .